في طريق الغرام

أقصوصة عراقية

بقلم الأديب السيد قاسم محمد

... ولطالما تاقت نفسه للوحدة والانفراد ليخلو إلى أفكاره وأمانيه التي يشغل بها مخيلته لمجرد التسلية وقتل الوقت الذي لم يعد جزءاً مهماً من حياته الخالية التي كرهتها نفسه . فود أن يحدث فيها ولو تغيراً يسيراً ...

تحركت ساقاه كرقاص ساعة كبيرة فارتسم خياله الممتد على سطح جدار متهدم تحت نور القمر الباهت حينما انعطف في زقاق ضيق انبعثت منه رائحة العفونة وبرزت على جانبيه تلك النوافذ القديمة المقوسة كأنها ظهر أحدب أو شيخ أثقلت كاهله سنو الشباب فراح يحملها معتزا بها فخوراً بذكرها ، ولو أنها أحنت منكبيه إلى الأمام وقوست ظهره فبات كقنطرة بالية ...

ملأ رئتيه ما استطاع من الهواء الندي العفن وزفره ملتاعاً مما غشيه من القلق والهم

يا لله ! إن كل شيء عجيب في هذا الطريق ... حتى كلابه التي لا تكلف نفسها عناء النباح على المار الغريب ، بل تكتفي أن تنظر إليه نظرة بليدة خالية من كل معنى . . . حتى جدران بيوته التي أبى النور إلا أن يمزقها دالماً لسانه من ثقوبها المتعددة ساخراً منها لدى الطارقين ، وحتى سطوحها التي أبت أن تعلو عن سطح الأرض كثيراً خشية أن يصيبها الدوار فتسقط حجارتها على قارعة الطريق فتتهشم على أديمها وهذا من حسن حظ العابرين ...

تثاقلت قدماه قليلاً ليشعل سيكارته بعود ثقاب

وبعد أن نفث دخانها وتلاشى فوق رأسه كأحلامه المسولة راح يتطلع إلى تلك النوافذ العجيبة علها تحوي جسد فاتنة تنسيه هواجسه وتلهب دمه ، دمه البارد الذي أوشك أن يتجمد في شرايينه ... هذا إن كانت تحمل دماً بمعناه الصحيح

لقد ازدحمت الأفكار في ذهنه وأوشكت أن تسيل على لسانه كلمات يلفظها فتتبدد وتتلاشى ، لولا أن جلب انتباهه صوت امرأة خافت كأنه هفهفة النسيم قد داعبت أذنيه من إحدى تلك النوافذ . لم يتبين المقاطع جلية ليفهم ما قصدته فسبقته عينه متطلعة إلى أخشاب نافذة لا تعلو عن سطح الأرض إلا بأربع أقدام ... لم يبصر شيئاً سوى خيال لا يكذب من يقول : إنه تراءى خلف ألواح خشب شفاف لكثرة شقوقه

لم يدر عابر طريق الغرام الجديد ماذا يعمل تجاه هذا الحلم الحقيقي الغامض فارتكزت قدماه على الأرض كعمودين شيدا من قديم الزمن ، وارتفعت يمناه بسيكارته إلى فمه أما اليسرى فلم تجد ما تعمله سوى

أن تندس فى جيب (بنطلونه) تطلب الدفء

وقف وهو مرهف سمعه ينتظر أن يحمل له الهواء الراكد صوتها الخافت ، ولكن لأول مرة عرف أن الوقت يسير متباطئاً ، ولأول مرة عرف أن الدقيقة الواحدة تكفى لعمل عدة أشياء خلالها وذلك للصمت الذى خيم عليه .

لقد انفرجت كربته ووثب قلبه راقصاً بين حنايا ضلوعه حينما تحركت تلك الأبواب الخشبية الشفافة كأنها عجوز تتثاءب وأطلت من خلال قضبانها الحديدية التى علاها الصدأ إنسية راقت لعينيه . ولم ينبهه من ذهوله إلا صوتها الحاد الرقيق قائلة :

— ألا تستحى !

— آه! كان يجب أن أستحى من جمالك ولكننى ذهلت عن أمرى، فمعذرة ...

— يالك من وقح ! ...

— أرجو ألا تزعجى نفسك بإنشاء أمثال هذه العبارات وإلا كلفت نفسك عناء كثيراً . فأنا طبق الأصل من أى جملة تريدين قذفى بها ، وكفى ... قالها لاهثاً وبإيقاع موسيقى سريع ، ولم يزد على أن ضحك ، فضحكت هى أيضاً ، وأغلقت نافذتها الشفافة بكل بطء وتراخ فأطفأ نور الغرفة وتلاشى ظلها عن الأبصار ...

لم تكن من بنات الشوارع ، ولم يكن هذا الزقاق الذى يسير به صاحبنا من المواخير السرية، بل لقد أطلق عليه اسم طريق الغرام صاحبنا (مظفر) الذى ما زال واقفاً يتأمل هذا البناء القديم وهذه النافذة العجيبة ...

قال لنفسه بعد ذلك بلهجته الساخرة المرحة ، ولكن بصوت أراده أن يكون مسموعاً ...

— من يصدق أن التاريخ يعيد نفسه ، وأننى الآن فى أحد شوارع ألف ليلة وليلة الخيالية بل ربما كان أكثرها حقيقة لاعجاز فيه ؟ . . ألم يكن قبل الآن لا يؤمن بالمعجزات والمصادفات ... ولكنه أصبح فى هذه اللحظة السعيدة أشد إيماناً وأكثر تمسكاً من الجاهل بمعتقداته التى ورثها أباً عن جد فأصبحت جزءاً من لحمه ودمه. وهل فى مقدور الإنسان أن يستغنى عن أحد أعضائه طوع رغبته وإرادته ؟!

كلا ، إن هذا ليستحيل، اللهم إلا إذا كان قد فقد حواسه الخمس ولم يعد يشعر بلذة الوجود ...

لم يسمع إلا ضحكة خفيفة حين سأل شيخاً كان قد مر به وهو لا يزال فى مكانه كالتمثال ...

— أى عمى العزيز ! بيت من هذا ؟

وبعد أن تطلع المجوز بعينيه الضعيفتين إلى وجه صاحبنا فى هذا الظلام ، وقد فاحت رائحة السموط من أنفه أجاب بكل فتور مستريباً :

— لا أدرى

وهم أن يتابع سيره وهو منقاد لعصاه الغليظة التى أكسبت سيره نغماً موسيقياً خاصاً به وشكلاً يلوح جميلاً فى أعين الفنانين ...

استوقفه متوسلاً وقال له :

— أحق وأنت قد خرجت من ذلك البيت الذى فى نهاية الطريق... أيعقل يا سيدى وأنت فى مثل هذه السن، أنك لا تعلم شيئاً عن جيرانك ؟ هذا إن كنت

لا تلم بتاريخ حياة كل أسرة مفصلاً . . . لا تخش بأساً أيها العم ، أنا لست لصاً . . . بل أنا . . . أنا أريد أن أستعلم منك فقط عن اسم صاحب البيت وذلك لأنى أريد أن أخبره بشيء . . . بأمر ضرورى . . .

— وما وجهة الضرر فى هـذا الأمر ؟ هل سيحل به مكروه ؟ قل ما هو هذا الضرر ؟. وأمسك لحيته بقبضة يده اليسرى شأن الشيخ المستفهم . فأجاب مظفر وقد حار فى أمر هذا العجوز الجاهل إذ لا يفرق بين الضرورى والضرر :

— لا يا شيخ ، أريد أن أقابله

— وكيف تقابله وأنت لا تعرفه ؟

— لأبين له حقيقة حالى . . .

فسعل الشيخ وقال :

— أتقدم إليه صورتك ؟ ولماذا ؟

أجاب مظفر وقد نفد صبره قائلاً :

— أريد أن أشرح له قضيتى . . أريد أن أبين له مسألة تتعلق بى . قل لى بربك من هو ؟ وإلا اضطررت إلى سؤال غيرك

فقال الشيخ وقد ارتسمت الحدة على وجهه ودق صوته وارتفع . . .

— يلوح لى أنك غريب عن هذا البلد وإلا كيف تجهل من كان . . . ولم يتم كلامه حتى فتحت النافذة التى تطلع إليها صاحبنا وظهرت الفتاة ثانية إذ قالت :

— يا عمى الشيخ حسين (وكان هذا الشيخ يتردد على جميع العائلات فى ذلك الحى لكبر سنه ولأحاديثه المسلية ولأنه يعرف التنجيم)

فقطع جملته التى كان مظفر يتطلع إلى نهايتها وأجاب :

— نعم يا بنيتى

فسألته متجاهلة :

— ماذا بك ؟ هل أنت تختصم ؟ لقد سمعت صوتك فخفت أن . . . تعال تفضل وحدثنا بقصتك التى وعدتنا بها أمس . . نحن ننتظرك الباب مفتوح . . أدخل . .

ولم يجد الشيخ مخلصاً من هذا السائل غير الهرب فأدار وجهه شطر الباب ودخل وبقى صاحبنا فى محله وقد توسط الطريق كشرطى المرور . . .

أراد البقاء فى محله ولكنه خجل من نفسه ، ورغب فى المسير فلم تطاوعه . حانت منه التفاتة إلى زقاق يتفرع من هذا الطريق فرأى شخصاً لم يتبينه لأول الأمر ولكن يبدو عليه أنه قد أفرط فى شرب الخمر فثمل ، ولذا أخذت ساقاه مطلق الحرية فراحتا ترقصان رقصة النشوان . . .

لم يكن مظفر يميل إلى السكارى لأنه لم يقرب الخمر ولكنه تريث قليلاً فى محله ولم يقرر شيئاً فاقترب السكير منه وبدأه بالتحية قائلاً :

— ها ها ها . . هلو بابا . . . ماذا تعمل هنا ؟ أتريد أن . . أن (وهنا شدد على النون شأن من ثقل لسانه) تقضى معى ليلة سعيدة ؟ ها ها . . . وكان يخرج مقاطع كلامه بصعوبة وهو يتمايل كالقرد قائلاً :

اسمعنى . . . آه . . . نعم أنت جميل والله العظيم

لم يجبه صاحبنا بل أنعم النظر فى وجهه وتجلت

أمارات الغضب فى غضون جبينه فاتسعت عيناه وتقلصت عضلات يده . . .

لقد عرف السكير وكان قصير القامة ممتلئاً من الوسط كالبرميل ، أما وجهه فكان يشبه السمكة ولذا كنى بها

ولم يدر صاحبنا حتى الآن كيف داعبت قبضته صدغ الموظف السكير . نعم لقد كان موظفاً وذا حول وطول ... لم يتماسك « أبو السمكة » بل فضل أن يستسلم إلى رقاد عميق مفضلاً الرصيف الصلب على فراشه الوثير

سقط مغشياً عليه بباب داره التى دخلها الشيخ حسين ، وهى دار قديمة تملكها زوجته الثانية بعد أن ماتت زوجته الأولى من جراء معاملته القاسية

استدار مظفر وعاد أدراجه لا يلوى على شىء وقد امتلأ رأسه بحادثته الأخيرة التى جاءت عفواً

ترى كيف حافظ هذا الموظف على كرسيه وهو لا يعى عمله لحظة من الزمن؟ إذ لم يحظ (أبو السمكة) حتى بشرف المثول بين يدى (الشيخ[1]) ليقرأ القرآن ويحفظه كما كانت الطريقة المتبعة فى ذلك الزمن بل جل ما تعلمه هو ما لقنه أبوه إياه من كتابة الرسائل التى كانت تكتب على نمط واحد إذ تستهل وتختم (بكليشيه) حفظه عن ظهر قلب

كان هذا قسطه من الثقافة . زد على ذلك افتخاره بأقاربه الذين يشغلون مناصب خطيرة فى الدولة واعتماده عليهم . . .

تهالك مظفر على كرسيه وارتجفت يداه حين سلمه موزع البريد رسالة لم يعرف خط كاتبها حين ألقى نظرة على المظروف! والأغرب من ذلك أنها أرسلت إليه من نفس البلد الذى هو فيه

تلاها مراراً ... وتحسس ورقها بأنامله ليشعر نفسه أنه ليس فى حلم

لم تكن الرسالة إلا من فتاة الليل . . . فتاة النافذة الجميلة . . لم تذكر له فيها سوى أنه اعتدى على والدها فى تلك الليلة. ولو أنها أنبته على فعلته تلك لما غضب ولطلب الصفح والغفران، ولكنها أكبرت فيه رجولته كما ذكرته بزيارته الليلية التى جاءت عفواً فغرست بذور الحب فى قلبها ، وقد ضربت له فيها موعداً . . .

كانت تميل إليه قبل أن يعرفها لأنه قد راق لعينيها وكفى . ولكنها نفسها لا تدرى لماذا مالت إليه ! ألأنه كان جميلاً ؟ كلا . . . لأنه لم يبلغ درجة تجعله يحلو بعيني رائيه . . . لكنه كان غريب الأطوار فلسفى النظرة . . . يتعشق بعض الفنون. وهى لا تنسى مدى الحياة ما تركت رسالته فى نفسها من عميق الأثر ، وقد كانت إلى صديق له وسقطت من جيبه عفواً حين أخرج منديله إذ كانت تسير خلفه ... لقد آثرت ألا تردها إليه إذ تغلبت عليها غريزة حب الاطلاع ففضتها ولا حاجة بنا لأن نقول إنها تلتها أكثر من ثلاث مرات ولم تدر لم أرسلت آهة عميقة حين انتهت من تلاوتها فغيمت

(١) معلم الأطفال على طريقة الكتاتيب ويسمى أيضا « الملا » بضم الميم

عليها سحابة همّ طيلة ذلك النهار

* * *

قرأ مظفر الكتاب الذى دبجته براعة فتاته الليلية فتراقصت كلماته أمام عينيه وراح يتأمل خطها الضعيف الذى بدا جميلاً فى ضعفه مثيراً فى تعابيره. أما توقيعها الجميل الذى تواضع واحتل مكانه فى مؤخرة الرسالة ، فقد كان وحده أجمل كل شيء إذ بدا إمضاؤها (فريدة) كشعر فتاة همت بتقبيل وجنة حبيبها . نظر إلى توقيعها بعينى فنان كسول وراح يهتف فى قلبه قائلاً :

— آه لقد ضربت لى موعداً وإنها لصدفة فريدة فى بابها ... ولكن هل أقابلها ؟ نعم ينبغى أن أقابلها بل يجب علىّ ذلك . ولكن ربما كان هذا شركاً نصبته لى تريد الانتقام لوالدها المصفوع

ولكن صاحبنا مظفر لم يعد يفكر فيما يترتب على هذا اللقاء بل أخذ أهبته للطوارئ وراح يتمهل فى خطوه بين جدران تلك الطريق المتداعية حين تعالى صوت ناقوس الساعة الكبيرة فى تلك المدينة الهادئة بأنغامه الحزينة يدق العاشرة ليلاً ... الطريق خلو من المارة . قلبه ينبض بشدة حتى حسبه وهو يسمع دقاته بأذنيه أنه فاق صوت ناقوس الساعة

انقطع عن تفكيره حين أبصرها بعباءتها السوداء وهى تقترب منه ، تلفت حوله فلم ير أحداً فانتحى بها ثم سبقها إلى رأس المنعطف الذى قدم منه صاحبه السكير فى تلك الليلة ، وذلك ليتسنى له مراقبة الطريق خشية الرقباء ، أو لينجيه إن كان ثمة فخ قد نصب له إذ اتخذه نمط رجعة إن حل الخطر . بادرته بسؤالها الجذاب الذى يطلق للعاشق حرية الإجابة قائلة :

— لم جئت ؟

ولم ينتظر مظفر بل أجاب على الفور :

— جئت لأحييك تحيتى الأولى والأخيرة، نعم يجب أن تصغى إلىّ ، أنا أحبك ولكنى لا أريد أن أراك ثانية لأنى لا أستحق منك العطف . أنا متقلب وذو نزعات متباينة حتى فى الحب . وصمت برهة لينشق الهواء بأنفه الذى تقاطرت عليه قطرات العرق ، وأردف قائلاً :

لعلك لا تعرفين شذوذى . آه كيف أستطيع أن أبين لك ... أنا أميل إليك واسمحى لى أن أتجرأ فأقول إنى سأكرهك ولربما سبقتنى أنت إلى ذلك بعد أن ينال منا الزمن من تشويه وتخريب . وهنا سمع وقع أقدام تقترب فقال :

— أنا غريب حتى عن نفسى . فكرى جيداً تعرفى الحقيقة . . . أستودعك الله . لم ينتظر أكثر من هذا فتحرك مسرعاً ومرق بخفته المعروفة فى المنعطف وتوارى عن عينها ...

* * *

لم يستغرب صاحبنا مظفر خبر زواجها وذلك بعد مضى ثلاثة أشهر من حادثته الغريبة. لقد أصبحت من أحبها زوجة رجل لا يعرف عنه إلا أنه موفور المال مسلوب الجمال . تاجر شغلت فكره المادة فراح يحتال فى طلبها بشتى الوسائل حتى أنه لم يتورع حين عاكسته الظروف من أن يرسل زوجته لصيرفى

اشتهر بصلفه فى سوق الكسب وبرقته فى سوق الغرام ...

أرسلها لترقق قلبه وتستعطفه على زوجها المسكين الذى أوشك على الإفلاس والتدهور. ذهبت ترجوه أن يقرض زوجها بعض المال علاوة على دينه السابق الذى استحق دفعه ...

لقد مزقت الوثائق وأنقذ زوجها من الإفلاس ولكن بعد أن ارتفعت الأيدى مشيرة إلى فريدة : إنها سقطت ...

* * *

لم تعد تجسر المسكينة على الرجوع إلى بيت أبيها السكير المتحذلق بعد أن طلقها زوجها لكرامته المزعومة التى أوعزت له أن يضحى بشرف زوجته على مذبح مطامعه ... ولم لا وهو لا يشعر بالحب وأنى له أن يشعر به وقد شغل باله حب المال وعريض الجاه ...

إن زوجته لا تمت إليه بصلة قرابة فلا عار عليه إذن بعد الآن . لقد تخلى عنها وطلقها بعد أن لاكت فضيحتها الألسن . ويا لكثرة المتطوعين لحمل أخبار الفضائح يتلونها على السامعين لا يبتغون جزاء سوى كلمة إطراء من السامعين للباقتهم وسرعة التقاطهم لأخبار لا يعيرها العاقل أذناً صاغية . . . لقد دبر الزوج خطة دفاعه ليظهر بمظهره بين الناس ولكن اللوم والعار كانا من نصيب فتاة الطريق (طريق الغرام)

هاهى ذى الضحية قد تسربلت ظلام الليل ولاذت بالفرار من أوجه الساخرين والشامتين .. أما أبوها فماذا يهمه من أمرها ما دام يحصل على زجاجات الخمور يملأ بها جوفه ، وتداعب أنامله تلك الأوراق المالية التى طالما سلبت نهى من تعشقها وأعمت عينه عن طريق الحق لينال ربحه غير المشروع ولتحترق الدنيا بأسرها بنار الكمد والحسرة ما دام هو منفذ القانون ...

لقد عرف كيف يستغل موقف ابنة زوجته ليبتز دنانير العار والفضيحة من الزوج المحتال وليتخم بها جيبه ، مهدداً إياه بالسجن إذا امتنع . وكيف لا يستطيع وهو . . . هو المهيب لا لشخصيته بل لوظيفته ومنصبه .

* * *

إنتقل مظفر إلى بغداد ـ حسب ما تقتضيه ـ وظيفته، وذلك بعد مرور ثلاثة أعوام ما نام فى لياليها إلا وقد شغلت فكره تلك الحادثة ... حادثة طريق الغرام ...

لقد أراد أن يحدث شيئاً فى حياته الراكدة المملة وود أن يجعل بها تغييراً ولو طفيفاً ، ولكن ها هو ذا التغير قد تسرب حتى إلى جسمه ، فنحل بدنه ، وارتسمت التجاعيد على جبينه ...آه ... من أفكاره المضطربة التى تعطخب فى جمجمته التى لو تحطمت لاستراح، إذ كم أوقعه لسانه فى مآزق لا ينجو منها إلا بشق الأنفس ...

لقد طبع على الصراحة ، وتعود حرية العيش منفرداً ؛ فما رغب فى شىء يستطيع الوصول إليه إلا ونفذه غير حاسب للنتائج حساباً . كم كان يميل إلى أفكاره الفلسفية التى تنعقد فى سماء مخيلته فتطير

لها نفسه شوقاً ، ولا يستيقظ من حلمه الجميل إلا ولسانه قد أسرّها إلى آذان أصدقائه الذين يلتفون حوله ، وقد ألفوا شذوذه ، وأنسوا به واستعذبوا أحاديثه ...

لم جئتَ ... لم جئتَ ...

لقد نغصت عليه عيشه هذه الكلمة التي ترددت على لسان فتاته . وطالما اعترته رعشة ألم عميق حين يتذكر جوابه لها . . . لقد أفرط في الجواب ووقع المحذور حيث لا تفيد الذكرى ، وليس باستطاعته أن يتلافى زلة لسانه الذي عبر عن أفكاره المشوشة ونزعته الطبيعية في الحياة ...

لقد انتقل إلى بيته الجديد في بغداد ، وراح يقطع الشارع في السيارة كل يوم قاصداً مقر وظيفته من البتاوين حتى باب المعظم

لقد كان يتأفف من الازدحام واللغط الشديد الذي ضج به شارع بغداد الضيق ، فلا يرتاح إلا حين يحتويه بيته الصغير الذي شيد على الطراز الحديث .

كان يأوي إلى شرفة غرفته المطلة على نهر دجلة فيلقي بنفسه بين أحضان كرسيه ويستسلم إلى أفكاره أو يتلهى بالنظر إلى وجوه المارين يتأملهم أو يجري بعض الإحصائيات التي كانت نتائجها غريبة مضحكة ... لقد أحصى المشوهين كما أحصى الجمال بل حتى عدد السيارات التي كانت تمر أمامه ، إذ كانت هذه تسليته الوحيدة في أوقات فراغه ...

وكثيراً ما كان يرى الكتاب في يسراه وسيكارته في يمناه المرتخية على ذراع الكرسي . ومع أن مظفراً كان كثير الجلوس في شرفته إلا أنه لم يلتفت إلى جارته الفتاة التي كانت تراقبه من شرفتها أيضاً ، إذ لم يشأ أن يورطها ويورط نفسه في الحب الذي يخشاه وإن كان يحلم به !

لقد كانت تكفيه بضع دقائق يقضيها بين أحضان خليلته التي تعشقته ومال إليها ...

لقد كانت جارته تعجب لرزانته وصمته، وكم كانت تسائل نفسها عن هذا الشخص الذي يبدو غامضاً لعينيها ! وكم كانت تنصت إلى أنغام كمانه الساحرة التي كان يداعبها غالب الليالي فتبعث في نفسها الشجون والآلام .. لقد كانت تشعر بأن نفسه كانت تسيل مع أنغامها فتبعث طافحة بأحزانه الوجدانية التي كان يحبسها . .

لقد فرضت جارته على نفسها الرقابة ، وقد كانت جميلة التقاطيع رياضية الجسم فتانة المنظر كما اعترف لها صديقاتها بذلك وهن مرغمات . . إذ كن يحسدنها لجمالها. قلنا لقد فرضت على نفسها مراقبته فنجحت في ذلك كل النجاح ، إذ ما كادت تترك مدرستها الثانوية وترى بكتبها على النضد وكان ذلك يوم الخميس حتى أسرعت إلى شرفتها وأطلت إلى حيث يجلس جارها الصامت، ولكنها استغربت عدم جلوسه في هذا اليوم كما اعتاد لأنه كما يبدو لا يترك بيته، ولكنها عجبت لأمرها إذ كيف تهتم بشخص لا تعرفه إلى هذه الدرجة، ولكنها استغربت كثيراً قدوم فتاة يبدو عليها أنها من الساقطات قد وقفت بباب بيته وضغطت على زر الجرس الكهربائي المثبت في الباب بأناملها الدقيقة . إن سحنتها جميلة وقد بدت عليها علائم المرض، بدت في عينيها الذابلتين وقدها النحيل واصفرارها الباهت كزهرة أوشكت على الذبول

لقد كانت تكسب عطف الناظر إليها قبل إعجابه

بجمالها . ولم تمض برهة حتى ولجت الباب الذى فتح لها وانسلت إلى الداخل دون أن تلتفت إلى ما حولها

لم تنتبه فتاة الشرفة من ذهولها إلا حين نادتها أمها لتناول طعام العشاء إذ قد غربت الشمس ولم تشعر لأنها أصبحت فريسة آلام نفسانية لا تدرى كنهها فقامت متثاقلة إلى المائدة ولم تر والدها لأنه اعتاد أن يأتى فى منتصف الليل وذلك فى ليالى الجمعة

لم تشته نفسها الطعام فعافته ، وكم سألتها أمها مراراً عن سبب سكوتها وتفكيرها ولم تجبها ولكنها الآن راحت تجيب على سؤال أمها الذى طالما سمعته وأجابت عليه بلا شىء — وقد أصبح الآن شيئاً — قائلة :

— إن جارنا يا أمى يجالس الآن فتاة ساقطة فى بيته

— ومن أدراك ؟ لعلها إحدى قريباته

فاندفعت الفتاة مجيبة :

— كلا . كلا ، إذ لم يزره طيلة هذه المدة أحد ما ؛ فهو يعيش وحيداً ، كما أنى شاهدت هذه الفتاة التى تبدو أنها غير شريفة كما هو شأن بنات الشوارع

— وماذا يهمنا يا ابنتى ما دام لم يتعرض لأحد منا بسوء ؟ إنه لا يبدو من الشبان المتهتكين الذين يغازلون جاراتهم وينظرون إليهن من السطوح ومن خلال النوافذ . إنه ساكن هادئ الطبع لم يزعج أحداً فى هذا الحى كما أنه فتى أعزب ، وما ينتظر من هؤلاء الفتيان الأعزاب سوى هذه الأمور ... دعى أمره جانباً ولا تفكرى فى مثل هذه الأشياء إذ لو سمع والدك هذا لأنبك على تدخلك فى شأنه ، وتثيرين سخطه على جارنا فتنشب بذلك قلاقل لا أرتاح لها

لم تجب حميرة أمها إذ كانت تخشى والدها الذى نشأ نشأة عسكرية ، وهو زعيم فى الجيش ولا يميل إلا لكل شىء عسكرى حتى فى شؤونه داخل بيته

لقد شغلت تلك الزائرة بالها . ولم تكن هذه غير فتاة طريق الغرام (فريدة) التى انحطت إلى هذه الدرجة من الذل فراحت تبيع جسدها بدراهم تسد بها حاجتها

كم كانت مهنتها شاقة عليها إذ كانت تخشى أن يظفر بها أحد أقاربها فيكون نصيبها منه القتل قبل أن يتمكن داء السل الذى استفحل بها من إرداتها . نعم هى ذى فريدة خليلته التى صارت تعرف الآن بـ (رافدة)

لقد عرفت صاحبها (مظفر) لأول نظرة ولكنه لم يعرفها . وأنى له أن يتذكر وجهها ولم يشاهده غير مرة واحدة فى تلك الليلة ... ليلة أن شعرت بنفسها تدنو من السعادة ولكن خاب فألها . وها هى ذى تحيا حياة بؤس وشقاء

لقد ألقت بنفسها بين أحضانه حين صادفته مرة فى إحدى بيوت الدعارة السرية وراحت تغريه بتملقها الذى استحال حبا عنيفاً طغى على فؤادها بعد ذلك

لقد أحبته سابقاً حين كانت فتاة طاهرة الذيل نقية السريرة إذ كانت كثيراً ما تلتقى به فى الطريق فتعجب به لما يبدو عليه من ظرف وطلاقة محيا ... وكم كانت تناجيه فى أحلامها وهو لا يدرى من أمرها شيئاً حتى كانت تلك الصدفة العجيبة التى ما كانت تأملها ولم تخطر لها على بال . كانت تود الخلاص من زوج أمها الملقب (بأبى السمك) إذ كان قاسياً فى معاملته لها ولم يشفق عليها لأنها ابنة غيره وقد تزوج من أمها طمعاً فى مركز عائلتها ، ومالها

إذ يستطيع بهما أن يبلغ ما تصبو إليه نفسه .

لقد ودت أن تعرف رأى صاحبها القديم فيها ، فسألته يوماً :

— أتحبني ؟

— كلا يا عزيزتى . أنا أشفق عليك وأميل إليك لأنك مسكينة .

— إذن أنت قد أحببت غيرى من صويحباتى يا خداع (قالتها بدلال) فأجابها متأثراً :

— كلا يا مخلوقتى التعسة أنا لا أميل إلى سواك ولو كنت كذلك فإنى أخشى من أن أصرح لك برأيى لأنى صريح كما علمت

فنظرت إلى وجهه بعد أن سمعت سعلة خفيفة جافة طالما أقضت عليها مضجعها وأهاجت وساوسها قائلة :

— يالك من إنسان غريب الأطوار . ألم تشعر بالحب ؟

وما أتمت كلامها حتى اعتراه شيء من الذهول وقال بصوت منخفض :

— نعم لقد شعرت به منذ سنين خلت لم أذق خلالها طعماً لراحة النفس وهدوء الفؤاد ... لقد كانت لحظة سعيدة اختلستها فى غفلة من الدهر وهأنذا أحاسب عليها حساباً عسيراً . لقد أفقدتنى الأيام بشاشتى وأخذت تستلب عمرى الذى أتنازل عنه فأهبه للدهر ساعات وأياماً وأنا صاغر ذليل ، ولكن هيهات أن تسلبنى الأيام ذكريات تلك اللحظة السعيدة التى دفنتها فى فؤادى . وانقطع عن حديثه إذ رأى صاحبته وهى تسعل بشدة لم يعهدها فيها منذ عرفها

فقال وقد بدت علائم الإشفاق فى نظراته :

— أرى سعالك يشتد يوماً فيوماً وأن صحتك فى انحطاط . ألم تعرضى نفسك للطبيب كما أشرت عليك منذ أيام ؟!

— وماذا يفيدنى . . . بالله قل لى من هى هذه التى سلبت فؤادك فغلقت أبواب حبك دونى ؟

— مالك ولهذا ؟ أنت مريضة ، وإنى لأخشى عليك فيجب أن أعرضك على الطبيب . ولكنها لم تجب شأن من لا يكترث بل ألحفت عليه بالسؤال قائلة :

أراك تتجنب الحديث عنها وتشعر بحزن عميق من أجلها فهل تزوجت من غيرك ؟

— حبذا لو سعدت بزواجها إذ كان قصير الأجل

— إذن لقد ماتت ؟

— أتمنى لها ذلك ...

— ولماذا ؟ كيف تحبها وتتمنى لها الموت ؟ شيء غريب لم أسمع به فى حياتى . وهنا عاودتها نوبة سعالها فاحتقن وجهها وجحظت عيناها الذابلتان وانفرج ثغرها الصغير وقد رفعت إليه منديلها ومسحته ، وبعد أن هدأت سألها :

— لم ترفضين طلبى ؟ إذا كنت لا تستطيعين الخروج معى فسآتى إليك بالطبيب هنا ، ولكنه صمت أخيراً وظهرت على وجهه علائم الاشمئزاز فقال:

— يسوؤنى أن يراك الطبيب فى مثل هذا الحال فعديني أن تأتي معى إلى البيت ليتسنى لى ذلك وإلا فإننى سأتركك مرغماً لأنك خالفت طلبى، وهذا لخيرك ...

فأجابت وقد اغرورقت عيناها بالدموع

— نعم يا مظفر لقد أجبتك ولا يسعنى إلا الامتثال ... لا أريد أن أموت ... لا أريد أن

أموت وأنا فى أيام شبابى وإن كانت محفوفة بالشقاء ذلك لأنى أريد أن أراك دائماً .. أريدك إلى جانبى إذ لم يعد شىء يحول بينى وبينك فى الوجود ... إيه ياعزيزى ولكنك لم تذكر لى عنها شيئاً

— وكيف أذكر لك وأنا لم أرها إلا دقائق معدودات . . .

— كلامك يعنى أنك أحببتها سراً من حيث لا تدرى هى بما تحمله لها

— كلا . لا تثيرى شجونى (وهنا أخرج علبة سكائره ولكنه أرجعها إلى جيبه إذ تذكر أن الدخان يثير سعالها . فطلبت منه أن يدخن فأبى ذلك محتجا بأنه قد نسى ما قرره بأن يقلل من تدخينه وها هو ذا قد تذكر فأعاد العلبة إلى موضعها)

ولكنها استحلفته بحق التى أحبها أن يدخن فقال :

— يظهر لى أنك كثيرة الاهتمام بأمرى

— ولم لا يا حبيبى الفيلسوف ؟ إنك ما زلت تجذبنى بحركاتك ونبرات صوتك بل وبكلامك المبهم الذى يدل على معان كثيرة . فهل كانت حبيبتك ممن يعشقن الخيال ؟ وإن كانت كذلك فلا بد أن تتلو علىّ إحدى رسائلها الغرامية ؟

— إنها لم تكتب لى باصديقتى المسكينة سوى رسالة واحدة، وكانت مختصرة ومقتضبة ، ولم نلتق إلا بضع دقائق ، حيث تركتها فريسة الشك فى حبى لها لأنك كما تعلمين . . .

فأجابت على الفور :

— من عشاق الفلسفة الفارغة ، وأردفت جملتها بضحكة عصبية وقالت له :

— سأزورك فى بيتك كما طلبت منى... وفضلت أن تهرب من أمامه الآن ، لأنها أصبحت فى حالة من القلق والاضطراب لم ينلها أشد البائسين .

وخرج من الغرفة ولم ينس أن يذكرلها عنوانه ، ويحدد لها ساعة الزيارة . ولم تخل الغرفة منه حتى استحالت أشجانها دموعاً تسيل على خديها الذابلين بصمت وسكون لا يعكره إلا سعالها الخافت بين آونة وأخرى ...

ترى ماذا يعمل لو علم أنها فتاته القديمة التى تعشقها ... أيحتقرها وينبذها ؟ أم سيعطف عليها لبلواها ...

راحت المسكينة فريسة ذكرياتها المشجية وهى بين عاملى الضحك والدمع السخين . لقد أصبحت شبه مجنونة لما طرأ عليها ...

إنها كالشمعة المتقدة تحرق نفسها لتضىء لغيرها وسيحين وقت نفادها فيسود الظلام ؛ ولم يعد أحد يذكرها بل سيطلبون غيرها لتفيض عليهم بنور لذائذها .

أهذه هى المروءة ؟ ... أهذا هو الإنصاف ؟ ... تبيع جسدها لتعيش بدراهمها التى كسبتها من لحمها ودمها ... رحماك يارب العالمين ... ارحم فتاة شقية مثلى ... أنت أدرى بحالى ... خذ بناصر مخلوقة ضعيفة ساقتها ظروفها إلى الفحشاء إنك أرحم الراحمين ... حبذا لو سلبت عقول عبادك الذين يفخرون بعقلياتهم على الحيوانات ولكنهم أشد ضرراً من الميكروبات الضارة وأثم لسعاً من العقارب ...

أيبذل الغنى ماله الذى ابتزه من دماء المساكين والفقراء ليشترى به جسد فتاة تردت فى حمأة الرذيلة دون أن يفكر فى إنقاذها ... يالهم من قساة ظالمة ! أهذه هى المدنية التى يدعونها فيسجلها التاريخ صفحات تقرأها الأجيال القادمة ولكنها لا تفكر

على أى أسس من الخزى والعار قد شيدت أركان صروحها ...

لقد تسممت أفكارها لما لقيته من صنوف العذاب والهوان ... فصارت تحقد على البشر بعد أن هدتها فكرتها إلى هذه النتيجة

ومع هذا لم تنس موعدها مع مظفر فراحت واقفة على عتبة داره حين رأتها سميرة من شرفتها ...

لقد زارته مصممة أن تعترف له بحقيقتها لتخفف عن آلامها بإفشاء سرها له الذى أثقل قلبها المحطم. ولجت الممر إلى الداخل ، ودخلت غرفة الاستقبال فوجدتها عارية من مظاهر الترف : أثاثها بسيط ولا تحوى شيئاً يستحق الذكر إلا كاناپه قد وضعت فى زاوية الغرفة على مائدة قديمة تبدو كئيبة فى تابوتها أشارت إليها قائلة :

— نعم يا مظفر كلانا كالكنان، سيحتوينا لحدنا حيث السكون والصمت ... عهدى بك تجيد الغزف عليها ، هلا عزفت لى لحناً من ألحانك الخافتة المؤلمة ... فأجابها :

— لم يحن وقت العزف بعد ... سآتى لك بالطبيب وأرجو ألا تنزعجى إذا تركتك وحدك بعض الوقت .. فمعذرة، يجب أن أسرع

لبس سترته مسرعاً ولكنه نسى أن يضع على رأسه سدارته ليخفى بها شعره الفاحم الذى احتلته جيوش الشيب ، وهو لما يزل فى سن الشباب

لقد كان الدكتور (ن ...) على مقربة من بيته فقصده لشهرته التى لا كنها الألسن فقابله وهو على عتبة داره قاصداً الخروج فرجاه أن يعود فتاته المريضة ولكن الطبيب اعتذر له بأنه على موعد مع أحد الأصدقاء، فقال له مظفر :

لعل صديقك لا يضجر من إخلافك موعده إذا علم بالأمر ، إذ سيضحى ببعض الوقت ، وإن لم يبدو لى أنه ثمين للدرجة تجعلك تضحى بمريض من أجله ...

— قلت لك لا أستطيع ... ولكنه وافق بعد أن عرض عليه أجراً كبيراً فاكترى عربة سارت بهما إلى البيت ...

دخل الطبيب وأدار بصره فى الغرفة ، ولكنه لم ير شيئاً يدل على بذخ صاحبه وغناه . استقر نظره على الفتاة التى بدت شاحبة تحت ضوء المصباح الكهربائى الذى كان ينير فى زاوية الغرفة . فسأل بلهجة جافة قائلاً :

— أهذا هو مريضك ؟

— نعم يا سيدى الدكتور

ولم يسمع الطبيب أكثر من ذلك ففحص الفتاة فحصاً دقيقاً ، وراح يسألها كثيراً وهى لا تجيب إلا بكلمة نعم ولا، حسبما يتطلبه السؤال، وأخيراً قالت

— لقد فات الأوان يا سيدى الطبيب . هيهات أن أشفى. نعم يا حضرة الدكتور إنى لشاعرة بنهايتى ولكن هل فكرتم بالبائسات المظلومات أمثالى ؟ وهل أوجدتم دواء لأمراض النفوس . وهنا انفجرت باكية فلم يتمالك الطبيب من أن يمسح دمعة انحدرت على خده وهمس فى أذن مظفر قائلاً :

— لا رجاء فى شفائها إذ أنها فريسة آلام صدرية تأكل رئتيها وآلام قلبية تحرقها . ولم ينتظر أكثر من ذلك فاستأذن فى الخروج ورفض الأجر الذى قدم إليه. وكأنه أحس بما يعانى صاحبه من الآلام فرفض أن يمد يده قائلاً :

— إن الكريم ليغلبه طبعه حتى فى ساعة الاحتضار ... أرجو يا سيدى ألا تحمل رفضى على غير محمله . أنا لا أقصد الحط من قدرك إذ لا أستطيع

أن أمد يدى إلى أجر لم أقم تجاهه بعمل مرضى

ولم يستطع أن يتكلم إذ خنقته العبرات وفهم كل منهما صاحبه بلغة العيون فخرج الطبيب وهو غريق فى فيض من الشعور غريب

عادت سميرة إلى شرفتها بعد أن عافت نفسها العشاء ؛ فرأت الطبيب وهو يخرج وعرفت مهنته من الحقيبة التى فى يده ، ومن السماعة التى بدت من جيب معطفه فأحست بفضول غريب يدفعها لأن تسأل الدكتور سؤالاً تردد فى ذهنها فأسرعت بالخروج وقد لحقت به على مسافة غير بعيدة واستوقفته وهى لاهثة الأنفاس قائلة :

— يا سيدى الطبيب ... مساء الخير ... أرجو المعذرة لإزعاجى إياك .

نظر الطبيب إليها مستغرباً وقال :

— تفضلى . ولم يتمالك أن ينظر إليها نظرة معجب بجمالها .

— من كان مريضك فى هذا البيت ؟

— ولماذا ؟

— يهمنى أن أعرف من هو

— إنه فتاة ... نعم فتاة مسكينة قد قربت نهايتها ...

— شكراً يا سيدى الطبيب

— أأستطيع أن أؤدى لك خدمة ... يلوح لى أنك كثيرة الاهتمام بالمرضى ؟

— هو ما تقول يا سيدى الطبيب. لشد ما يريحنى أن أستطيع أن أرفه عن بعض آلام المرضى

— أرجو العفو ، هل أنت جارتهم ؟

— نعم ...

— أرجو أن تخبرنى إذا كان أحدهما بحاجة إلىّ عسانى أؤدى لهما بعض الخدمة . وترك لها عنوانه فى بطاقة وسار وهو يفكر بها حالماً بشريكة حياته التى عثر عليها ...

* * *

لم يستطع مظفر أن يجبرها على المكث معه لأنها أبت أن تقضى ليلتها فى بيته فتسلبه راحته ، قالت له بعد أن فكرت طويلاً ...

— إسمعنى يا حبيبى ... سأتلاشى كما تلاشت أنغام هذه الكمان ، ولكن الذكريات هى التى تبقى لنا كسلوى تشغل الفكر ...

أريد أن أعترف لك قبل موتى ... أريد أن أبوح لك بسرى الذى طالما حرصت على كتمانه ... ولكن هل ستحتقرنى ؟ أواه إنى لا أطيق ذلك ... قل إنك تحبنى ، عدنى بذلك ليرتاح قلبي المذنب .. سيحل الفراق الأبدى إذ لا بد منه ولا بد أن أسمع منك كلمة حب .. بل إشفاق ... بل رثاء

— دعى عنك هذا الهذر ... هل رأيت منى ما يسوؤك ؟

— لا يا حبيبى القديم ... منذ كنت فى مدينة (د ...) وأنا لم أتجاوز السادسة عشرة حيث صادفنى من كان شريك فؤادى فى محلة (...) ورمقنى بعينه الثاقبة وأنا فى نافذتى حيث تحطمت آمالى فى اليوم الثانى

ولم يفعل مظفر إلا أن قفز إليها واحتبس عليه كلامه إذ عصاه لسانه وراح ينظر إليها نظرة شبيهة بنظرة المجانين ، وأخيراً قال :

— أأنت فريدة ..؟ آه يا أملى الضائع لم لم تقولى ذلك من قبل ؟ واحتواها بين ذراعيه العلبتين لا يدرى كيف يحتفظ بها لنفسه ولكنه انفجر باكياً حين عاودتها نوبة سعالها بشدة وقد تدفق الدم من فمها وأنفها ...

ألفى نفسه عاجزاً عن أن يردعها غائلة الموت ...

— يا إلهى ماذا أصنع ؟ فريدة ... فريدة ... أهكذا يكون مصيرك ؟ .

راح يستنجد بكل شىء يقع عليه نظره كالمجانين . ها هى ذى تموت أمام عينيه وتذوى زهرتها فى ربيع حياتها ...

رمقته بنظرة توسل من زاوية عينيها وتكلمت فكان صوتها ضعيفاً فانحنى عليها يسمعها . سألته :

— أتحبنى ؟ أتشفق على مومس مثلى ؟

فنظر إليها والدمع يترقرق فى مآقيه ، وكان هذا هو جوابه الوحيد . فضغطت على يده بأناملها الضعيفة واستطردت قائلة :

— إدع الله أن يغفر لى ما اقترفته من الذنوب إذ غررت بشباب كثيرين ودفعتهم إلى الدرك الأسفل من الرذيلة والفسق ، ولم يكن يوسى أن أفعل غيرهذا ... أنت تعلم ... لقد عرفت حالى ... سأموت مرتاحة

نظرت اليه نظرتها الأخيرة وارتعشت شفتاها وأسلمت الروح

* * *

عثر الدكتور (ن ...) وهو يتصفح كتاباً قديماً فى مكتبة زوجته (سميرة) وذلك بعد ست سنوات — على رسالة تلاها مراراً وعرف ما أشفق أن يفاتح به زوجته كما كانت هى أيضاً كذلك ، وهو :

إلى جارتى العزيزة :

أرجو الصفح عن شخص تعدى حدود الأدب فى كتابته إليك دون سابق معرفة ... أى جارتى العزيزة لم يعد يوسى إلا أن أكاشفك بحقيقة أمرى

لقد كنت تحصين على حركاتى وسكناتى ، وإنى لأحمل لك أطيب الذكرى فى قلب حطمته الآلام لاهتمامك بى .

لقد خشيت عليك منى وأنت حديثة عهد بالحب . ولا أكتمك إعجابى بجمالك ؛ فوددت لك زوجاً صالحاً يرعاك ويشعرك بالسعادة وتمنحينه عطفك الذى ينسيه متاعبه فتتمتعان بنعيم الحياة !

لقد أبصرت نتيجة الحياة فى بيتى ... ولا أنسى دمعتك التى جادت بها مقلتاك ، إذ كانت بلسماً لجراح بائس مثلى ...

إبتعدى جهدك عن التفكير فى الحياة وإلا جلبت إلى نفسك الأحزان . . . خذى الأمور على علاتها ولا تسألى عن أسبابها . إذ لا تساوى الحياة دمعة تذرفينها أو آهة تلفظينها !

ربما لا أراك بعد ... وإن كان يعز على أن أفارق شرفة بيتى !

سأرحل وقلبى يحمل لك أخلص الود وأطيب التمنيات . ولى أمنية أرجو أن تحققيها إن كنت ترغبين ...

أرجو أن تزورى قبر رفيقتى التى عاشت بائسة شقية !

جارك : مظفر

وما أتم الرسالة حتى رأى زوجته لدى الباب ، ونظر كل لصاحبه نظرة تنطوى على الإشفاق . فقام واقتادها إلى الشرفة ، ونظرا إلى شقة جارهما التى استأجرها شيخ عجوز . نظرت إلى شرفته وأشارت قائلة لزوجها :

— لقد كان يجلس هنا .

ولم تتمالك نفسها فوضعت رأسها على كتف زوجها باكية !

لم ينبههما إلا طفلهما الذى جاء منادياً أباه قائلاً:

— بابا ... بابا ... بكره عيد ... اسمع ها هو المدفع ... هى هى ... وصفق بيديه الصغيرتين طرباً

أما أبوه فقد قال لزوجته :

— غداً سنزور قبرها ... وسنوزع الصدقات لأجلها ... لقد كانت تحرق قلب من ينظر إليها ياسميرة ... ولست بناس ذلك اليوم ما حييت ...

« كربلاء » السيد قاسم السيد محمد